على النهر

قصص قصيرة

شريف عبدالكريم

الإهداء

إلي ولد خجول في جلبابه الريفي القديم، يحمل لوحه تحت إبطه ويركض في القمح المسور بالنخيل والحناء، يفرك السنابل فيحط الحمام علي كفه من النخيل الجانبي، يأكل ويغمغم

وإلي غادة

الفهرس

عقد عقيق

للمرة الثالثة يجف اللبن من ثدي زوجتي ويموت أطفالي قبل السبوع لسبب لا أعرفـــه، وكنت صغيرا حين كانت تقابلني في نهايات الشوارع المسدودة والحارات، فتفتح ذراعيهـــا وتأخذني لدارها في الخلاء. وأستسلم لحكاياتها عن الحيض والحسد والنفاس وأماكن اختباء العفاريت. وكانت تحدثني عن العجوز الأعمى الذي يري نمو الشجر وحركة الظل، وعن عقد عقيق أحمر لا تلمسه إلا امرأة لا تحيض، من يلمسه لا ينجب ولا تعيش له ذريـــة. وكانـــت تصحبني معها في الولادات فأري لهوجة النسوة والبنات بهدوم النوم وشعورهن المنكوشة، يسخن ماء ويعملن قرفة.

ــ هاموت ياخاله هانم.

ــ إحذقي يابت.

حذق وصراخ ولهوجه، وعند زنقة الرأس أسمع صرخة مدوية ومؤلمة بعدها يأتي البكـــاء الجديد ضعيفا ومتلاحقا:

ــ زغرودة يا قحايب.

تدوي الزغاريد ويمتزج الفرح بالدموع في عيون النسوة وهن يذبحن الـــدجاج ويوقـــدن الكوانين، وتدخل فردوس عز الرجال المتزوجة من سبع سنوات ولم تنجب ــ فتخطو فـــوق "الخلاص" الدافئ سبع مرات وتأتي فتحية موسى أخف البنات ظلا لترمي الخلاص في النهر وتضحك.

ــ الشاي ياخاله هانم.

ــ إدى جوزي الأول يابت.

ــ يالهوى ياخاله.. جوزك مين؟

ــ الواد سند يابت.

فتضحك النسوة وهن يتثاءبن أمام المواقد، وبينما يسود الهدوء تهب واقفة وأنا في يدها، وتنبه بصوت حاد بمنع الدخول علي الوالدة بالليمون أو اللحم النيئ، ولا يدخل عليهـــا مـــن حلق شعره أو قص أظافره، كما لا يدخل الدار حلاق حتى السبوع.

ــ ولو دخل الحلاق؟

ــ تتكبس ولبنها ينشف.

ــ ولو نشف ياخاله هانم؟

ــ ألبسها يا سند عقد العقيق تلات ليالي.

ثلاث ليال ويعود اللبن في صدرها من جديد، عقد عقيق أعرفه بلون الشفق ذو ثلاث حبات حمر، في صندوقها القديم، حوله مسابح معلقة ومغازل ومحارات وحجر طرفة العين وأحقاق كحل وزعفران وعلب دخان وبخور وأقماع سكر.

ثمانية أعوام أعمل في المستشفي الجامعي، ولم أستطع التخلص من سطوتها، وكلما دخلت غرفة الولادة أحس بدوار خفيف وبرودة، وبالأشياء تنسحب وتبقي هي، أكاد أراها بوجهها العجوز الحاد وصوتها الرجولي بينما نفس السيجارة الموشكة دائما عل الانتهاء تحرق إصبعيها. تشدني بقوة رغم بلوغها الخامسة والسبعين:

ــ عليَّ الطلاق لتشرب معايا الشاي.

أحاول أن أعتذر، وأخلص نفسي منها، فترخي يديها وتخبئ دموعها:

ــ آه.. نسيت إنك بقيت دكتور يا سند.

في نفس المكان كنا نشرب الشاي، وكانت تصحن الكحل بالمحلب وعرق الذهب، وتحوِّجه بجذور السعد والطيب وقشر الرمان المحترق.

للمرة الثالثة يجف اللبن من زوجتي ويموت أطفالي قبل السبوع لسبب لا أعرفه، وكنت أحس أن شيئا قد انكسر ولا يمكن إصلاحه، ولا أدري بالتحديد متي بدأت تتحفظ في تعاملها معي، لكنها فقدت منذ تخرجي ببطء شهيتها للسجائر وميلها القديم للمرح. إختلفنا في بعض الأشياء فمالت للصمت ولزمت دارها فترة طويلة. ورفضت بإصرار حين دعوتها للعمل معي كمساعدة، وفي المرة الأخيرة قابلتني في مفترق شارعين، ونبهتني للسيجارة التي تحرق إصبعيَّ فرميتها، قالت:

ــ حمد الله علي سلامة المدام.

وتلكأت مقدار خطوتين قبل أن تنعطف، كنت علي وشك أن أطلب منها العقد لكنني لم أفعل. قالت زوجتي إنها في كل مرة يزداد كرهها لهذه المرأة، فعصرت ثديها ولم ينزل منه شيء. دفعت بابها القديم بفضول الطفولة الأولي وعشمها لأرتمي في حضنها العجوز وأبكي كطفل صغير. لم أجدها، اندفعت إلي القاعة المظلمة، فتحت الصندوق فلم أجد شيئا، سألت عنها العجوز مفقوء العين الجالس علي النهر، قال إنني تأخرت كثيرا، بكيت علي صدره وقلت: دلني فأمرني بالتجول في المقابر ولا أتكلم حتى أعود.

فجر الأيام الثلاثة الأولي للشهر العربي، وحدي كنت أتجول في المقابر فأري طفلي مضيئا، يجري أمامي في جلباب ريفي وطاقية، ولَّدته وكحَّلته بكحلها المحوج هانم فودة، ورمت خلاصه في النهر الكبير فتحية موسى. كان طفلا مضيئا يرفل في ثوبه الريفي بريئا وضحوكا، وفي رقبته عقد عقيق أعرفه ذو ثلاث حبات حمر.

غياب

من شرفتي كنت أراهما فأنتشي، العجوز الغريب وطفله الصغير الذي في رجله عرج خفيف، يخرجان كل صباح إلي الحقول، يتمشيان ويجلسان في مصلي صغير علي النهر، يتحدثان وينامان أحيانا تحت ظل الشجرة. كانا يلتفتان نحو الشرفة، ويلوحان أحيانا بأيديهما، فهل شعرا أنني أتابعهما؟.

الغريب الذي كان عجوزا، كان دائم الشكوى من ألم في معدته، لكنه كان واثقا في صباح ينتهي فيه الألم. حين أوضحت له أنه في حاجة إلي عملية ولا يجب التباطؤ، اصفر وجهه وتململ، وقال إنه بعد هذا العمر ما زال يخاف من المستشفيات، ولا يوجد غيره يرعى الطفل، وتساءل في حيرة إن كان هناك علاج آخر. هززت رأسي فانصرف وقال إنه سيفكر، وكنت أراه من شرفتي كل صباح، متوكئا علي صغيره، وتحت الشرفة بالذات، كان يتعمد السير مسرعا، ولا يحاول الالتفات.

لا أدري منذ متي امتنعت عن الوقوف في الشرفة، لكنني كنت قد نسيت بالفعل، حتى حين فاجأني جالسا أمامي لم أكد أتعرف عليه. كانت عيناه غائرتين وعظام وجهه بارزة، وكان في جلبابه القديم هزيلا وغير قادر علي الكلام. كان الطفل قد انتهي لتوه من إجلاسه وإسناده في المقعد حين التفت نحوي وقال:

ــ أبويا متتبارك بإيدك ونفسه يعمل العملية.

لم أعرف ما الذي كان يجب أن أفعله، لكنني بمودة حقيقية، ربتُّ علي كتفه وضممته إلي صدري وقلت:

ــ إعتبرني مثل ابنك.. لا داعي للعملية.

انقض علي يدي يريد تقبيلها:

ــ وحياة النبي تعملها لي.

وبكي. ضممته أكثر وقلت إن العلاج سيكون أفضل، وحاولت الابتسام، فخيل إليَّ أنه يبتسم، وأنه مشي دون أن يساعده أحد، ووعدني أن يأكل. كان ممتنا وانقض علي يدي للمرة الثانية يريد تقبيلها، يا إلهي، كيف أمسكت لساني فلم أبلغه أنه سرطان المعدة. وأنه مرحلة متأخرة ولا تفيده الجراحة الآن؟

من شرفتي كنت أتألم حين أراه وحده، يخرج إلي الحقول، يكلم الأشجار والطيور، يستريح في المصلي الصغير علي النهر وينام أحيانا تحت ظل الشجرة، لكنه ــ الطفل الصغير الــذي في لسانه لثغة وفي رجله عرج خفيف ــ لم يعد يلتفت نحو الشرفة.

الواد الجديد

كان علي أن أصحو في غبشة الفجر، أجهِّز صرة الغذاء وسترة الشغل وأنتظرهم. قلت سآخذ النهر والشمس التي ستشرق في يميني وأسير خلفهم، بدا أنهم لا يشعرون بي فيما كان الطريق طويلا وهم يسيرون بخطى مسرعة ولا ينظرون للخلف. دخلوا من البوابة الكبيرة، ركنوا الصرر ولبسوا هدوم الشغل بسرعة فارتديت سترة فهمي الواسعة بلا أزرار. سب الرجل القصير أمهاتنا للتأخير وأشار إلي تل الكتان المكوم:

ــ نزلوا ده في الحوض.

أول يوم لي، هو الريس بالتأكيد كما وصفه فهمي ويجب أن أستأذنه، باغتنا مرة أخرى.

ــ اشتغلوا.. مستنين إيه في نهاركم الأزرق؟.

كان غاضبا وأحسست أن الوقت غير مناسب، وفهمت من لهجته ما يشبه الموافقة وإن ساورني الشك والخوف. انطلقت خلفهم إلي جبل الكتان المكوم، أفرد الحبل وأرص الحزم وأرفع فيستقر الحمل علي ظهري. كنت أسير خلفهم محنيا علي مدقات ضيقة وملتوية حتى الحوض الكبير، نقذف فيه ليتولى آخرون الرص بعناية.

اختار لنفسه موقعا يرى الجميع منه، يمرون أمامه، يزغد البطيء فيسرع، يضيف حزمتين للحمل الخفيف، أو يستحث الفارغين بعصاه الطويلة، وكنت أراه أحول العينين قبيحا. أمر أمامه فيحدق في وجهي بإحدى عينيه فأظنه لا يقصدني، في المرة التالية وجه عصاه ناحيتي وبدا كأنه يكلم شخصا آخر:

ــ إيه ده.. الواد جديد؟

ارتبكت وشعرت بمرارة وجفاف في حلقي فيما سطعت شمس أخري حادة وحامية ولم أتذكر ما قاله فهمي في مثل هذا الموقف. ظلت عصاه مشرعة في وجهي حتى أنهي كلامه في بساطة وحسم:

ــ مش عايزين أنفار.. ميت اللي قال لك اشتغل؟

انشغل بالحديث مع ريس آخر وتركني متحيرا، كان المدق ضيقا وملتويا وبدا أن وقوفي يعطل حركة الأنفار فعدوت بالحبل في يدي، أتفادي الاصطدام بالأنفار المحملين، فيما بقي أسبوع واحد بعده تبدأ الدراسة ويخفُّ فهمي. انحرفت إلي جبل الكتان أفرد الحبل وأرص الحزم وكنت أشعر أن فهمي يبتسم ويغمز بعينيه مشجعا.

اشتغلت المكنة فتدفق الماء إلي الحوض، لم يرني أحد حين انكفأت علي القناة وشـــربت، وإن نظر الجميع إلي بارتياب حين كنت عرقانا ودائخا والماء يرتج فـــي بطنـــي كالقربـــة، لسعني بعصاه الطويلة وزعق:

ــ مش قلت لك مش عايزين أنفار؟

قفزت من المفاجأة والألم وإن لم يسقط الحِمْل، استشعرت غله وقسوته فـــدعكت فخـــذي، وعاود فهمي الابتسام فاستبعدت الطرد وبدوت مرتاحا لهذه النتيجة.

هدأ صوته وعاد لمتابعة الرص والتحميل واستعجال الأنفار.

ــ إتحرك يا صبحي.. بسرعة يا ابو زيد.

أمر أمامه فيلسعني لسعات خفيفة ومتوالية لكنها مؤلمة:

ــ إتلحلح يا جديد

كنت أتقافز من الألم والسعادة، سأستمر في العمل،تحت الاختبار وبأجر أقـــل لا يهمنـــي، سأصبح قديما، أتولي الرص والتعطين والتنـــشيف أو أقـــف أمـــام الكـــسارات والمـــراوح، أستخلص شعر الكتان الناعم وألفه في ضفائر وفي آخر النهار سوف آخذ الشمس الغاربـــة في يميني والنهر في شمالي ولن أقوي علي المسير، سيـــسبقني الأنفـــار وأســـتريح فـــي المصليات، أغمس قدمي في النهر كما قال فهمي فتنطفئ الجروح فيما يبدو وجهـــي علـــي سطح النهر أسمر والخدوش أقل حمرة وألما.

يوم الخميس، ساعة القبض تزاحموا أمامه، يقبضون فلوسهم ويعلِّم علي أسمائهم فـــي الدفتر. جاء دوري فأغلق الدفتر وهمَّ بالوقوف،قلت له:

ــ أنا لسَّه.

ــ إنت مين؟

كنت أظنه يعرفني، بكيت:

ــ أنا الواد الجديد.

قبَّضني ستين قرشا وقال وهو يبتسم:

ــ الأسبوع ده علي عشرة والجاي علي اتناشر.

مسحت دموعي وأحسست أنه غير قاس ونسيت شتائمه كما قـــال فهمـــي ــ الله يرحمه ــ ولم تعد لسوعة العصا تؤلمني جدا. أشار بإصبعه مؤكدا ومذكِّرا.

ــ أوعي تنسي.. الأسبوع الجاي علي كااام؟

مسحت دموعي مرة أخري وهززت رأسي، غمست قدمي في النهر فانطفأت الجروح بالفعل، الأسبوع القادم مدرسة وقدمي لم تعد تؤلمني كثيرا، قلت وأنا أبتسم:

ــ علي اتناشر.

الوجه القديم

لم ينم الليلة مطلقا، هذه عادته إذا غير مكان نومه، عندما يـــألف هـــذا الـــسكن الحكـــومي الأبيض، ربما يختفي كل شيء. فتح النافذة بإرهاق شديد، تراجع حين فاجأه ضوء الشمس، دعك عينيه، فبان القطن أخضر، والدور الطينية بعيدة ومهملة. كان العيال يلبسون الطواقي وينحنون علي عيدان القطن القصيرة يقلبون أوراقها الخضراء ويغنون، وكان الخولي يلعن آباءهم ويأمرهم بالكف عن الغناء والسير في صف واحد.

حين أوضح له أنه وضع مؤقت، قال بإصرار واضح:

ــ ولو.. ابنتي لن تسكن الريف.

لهجة الرجل كانت صارمة، ووضح أن محاولة أخري لإقناعه غير مجدية، أحس بالـــصالة واسعة وباردة، والبنت التي أحبها شافت حزنه الريفي فدخلت حجرتها ودفنت وجههـــا فـــي الوسادة تكتم صوت البكاء، لاذ بوجه أمها متشوفا للتدخل فمطَّت بوزهـــا وهـــزت كتفيهـــا. استأذن في الخروج والأشياء لبست جهامتها القديمة.

اليوم يتسلم عمله طبيبا بهذه الوحدة الريفية، حيث البيوت الطينية القديمة، والقطن الطالع بنواره الأصفر، وعيال الدودة يخرجون من طلعة النهار يلمون اللطع، عندما أرسلته زوجـــة أبيه إلي الدودة، كان صغيرا والنساء قلن لها:

ــ حرام عليكي.. الولد صغير والدنيا حر.

غمغمت في كره:

ــ العيد قرب.. يروح يكسي نفسه.

ثم شدته من وسط العيال، ورمت لعبه الطينية، وأعطته صرة الغداء ودفعته فـــي ظهـــره. كان يبكي ويبص للعبه المرمية، وكانت تذكره بأن اللطعة حمراء وبيضاء.

لبس معطفه ونزل، لمحه المرضي، فاصطفوا أمام حجرة الكشف أطفالا صفرا لا يـــأكلون السميط ونساء بجلابيب سوداء والتذاكر مشرعة. قال: "صباح الخير" ثم دخل الحجرة، سرير صغير بملاءات قديمة وكتب ورائحة أدوية.

قالت: له عصر أحد الأيام وكانت لابدة بجواره علي النيل:

ــ لماذا خطبتني؟

قال وهو يريح رأسه علي كتفها إنه طفل، وإنه يشعر برغبة عارمة في الارتماء علي صدرها. بشقاوة طفلية سحبت كتفها، لاحظت أنه تضايق فابتسمت بآلية وقالت: أحبك، قال: إنه لا يدري سببا واضحا لاستيقاظه بالليل وانخراطه في بكاء عنيف.

لمَّت ابتسامتها وقالت:

ــ ربما تتذكر أمك كثيرا.

التومرجي فتح الباب وأدخل ولدا صغيرا وبنتا أكبر منه تضع يدها علي كتفه، ناولته التذكرة وقربت الولد منه.

ــ خير يا قمورة.

ــ أخي ساخن ودايخ.

كان الولد زعلانا وشفته السفلي مدلاة وذابلة، والصهد يخرج من جلده الأسمر المعروق والمشرب بصفرة خفيفة. قال:

ــ لعبت في الشمس؟

ــ آه.. كنت في الدودة.

أراد أن يصرخ في العالم:

ــ الولد صغير والدنيا حر، حرام عليكم.

حر يعرفه وعطش منذ لفت البنت السمراء النحيلة علي الأنفار بالكوز، وشرب، كان لماء الترعة طعم الدواء لكنه شرب، والماء طلع علي جسمه والوجع اشتد، وقبل أن يسقط علي الأرض، وتصبح كل الأشياء معتمة وصامتة، كان يشعر برغبة حادة في الصراخ، وعندما رجع مسنودا علي كتف البنت السمراء، كانت زوجة أبيه ترمقه بحقد، وبكل غل شدت منه الصرة وتركته مرميا علي المصطبة كجلباب قديم.

أدرك أن الكلام مع البنت لن يفيد. سألها:

ــ أين أمك؟

بهتت ولم تتوقع ذلك، قالت وعيناها في الأرض:

ــ ميته.

السميطة السليمة سقطت من الولد. ثمة هاتف لحوح يقول له أن زوجة الأب هي التي أرسلت الولد للدودة، وثمة شعور بالتعاسة حين وجد الأدوية قليلة، ووجد نفسه محاصرا بكل الأشياء القديمة.

قلب التذكرة، كتب للرجل الذي سيزوجه ابنته:

ـ إن أصررت علي كلام أمس.. اعتبر ما بيننا منتهيا.

وأخذ الولد الصغير من يده، قرر أن يصرخ وسط هذه الدور الطينية البعيدة.

توتة مائلة علي نهر

خرجت فطوم بجلباب غامق وطرحة وملاءة سوداء وشبشب كما تخرج كل يوم، في ضفيرتها مفتاحان، أحدهما لدولاب بالحائط والآخر لصندوق صغير ورثته عن أمها. أكد الذين رأوها في اللحظات الأخيرة أنها مرت بالشارع الكبير وأخذت طريقها علي النهر حيث كنا جالسين جميعا علي المصاطب والمقاهي وعند التوته ولم يخطر ببال أحدنا أن يوقفها، وأنها ظلت محتفظة برجاحة العقل وحضور الذهن رغم تخطيها المائة بكثير إلا من همهمة كالدعاء وبعض البكاء المتقطع دون سبب واضح.

العِشْرة لا تهون إلا علي أولاد الحرام، وكلنا نتسابق للجلوس عند فطوم، نقطف ملوخية وننقي أرزا أو قمحا، نحلج قطنا أو ننفش صوفا تغزله وتنسجه أحزمة وزعابيط وطواقي مستمتعين بحكاياتها الغريبة رغم سقوط أسنانها وعدم وضوح كلامها. ربما تشوشت الذاكرة، لكنها لم تفقد قدرتها علي الحكي، تسرح وقبل أن نحس تشغلنا بالسؤال:

ـ كنا واقفين فين؟

بدا غيابها علي هذا النحو مفجعا اتصل الشيخ محمود عبد العزيز بالمركز وكان قد تعلم منها الهدوء والإقناع وإدخال الحكايات في ثنايا خطبة الجمعة حتى لا يشرد منه أحد. وذهب إلي المستشفي متوكئا علي عصاه، مع عبد الحميد شرارة ناظر المدرسة الذي أخذ عنها السماحة ونبذ القسوة، فدرجنا علي تحيته وتقبيل يده أينما قابلناه، وبحث في النهر طه حسنين بالضرائب وأحمد سيد أحمد بالسكة الحديد، بينما تطوع سيد الحبشي الغفير بالبحث في الحقول حيث تعلم منها الدخول مبتسما كأنه ضيف علي الشخص المطلوب، يتكلم عن العيال والمعيشة ويشرب الشاي ثم يميل هامسا:

ـ البيه المأمور عايزك في كلمتين.

كما ناقشنا مطاردة عيال عيسي والهراوي لها بالحجارة ورميها بالجنون، وأجمعنا علي أنه نوع من قلة الأدب يشجع الآخرين علي تقليدهم في جعلها مادة للسخرية.

عند توتة فطوم المائلة علي النهر، كنا نستطلع الرؤية وننتظر مدفع الإفطار، ونبدأ زفة الموالد بالمزمار البلدي والخيول، نلعب التحطيب والسيجة وننادي علي التائهين والموتى، ونعلن النتائج ونزف العرائس، وعلي جزع التوتة كنا نصطف وندلدل أرجلنا في النهر، نلف السجائر ونفض المنازعات وكان علينا أن نقدر صدمتها حين ضبطت محمد الهراوي متلبسا بقطع فرعين من التوتة للتدفئة، لم تكن فطوم التي نعرفها، كانت تهزه في عنف وذهول، غاضبة وغير منتبهة لوجودنا ونحن نحاول تخليصه منها، وحين صرخ:

ــ الست دي مجنونة.

إنتبهت فجأة وسكتت، كأن شيئا لم يكن، تركته وبصقَت في وجهه فتطــاير الــرذاذ إلـــي وجوهنا وانصرفت لدارها ولزمت الصمت، كان الجذع عريضا ومائلا علي النهر بما يتــسع لعشرين رجلا ثم يرتفع مرة أخري متفرعا ومورقا، وكان توت خد الجميل يسقط في النهــر فيأكله عيال المراكب والنسوة علي الشط يغسلن الهدوم، فيما لم يعد يطلب خد الجميل سوي العجائز والحوامل في أشهر الوحم.

ظلت "فطوم" بكرا، لم تتزوج ولم تمرض ولم يرها طبيب، تأكل عيش الذرة وتطبخ السلق والرجلة والملوخية ناشفة وخضراء ولا تأكل الطيور، مبروكة، تــدعو للــذاهب للامتحــان فيوفَّق، والذاهب للسوق فيكسب، وللمريض فيشفي وللعاقر فيعوضها الله بالذريــة، تحفــظ القرآن وترقي المحسود وتعالج الخضة وطرفة العين وجفاف اللبن، تدعك الخلع وترد الكسر وأمراض النساء. ومالا تعرفه تقول في حسم:

ــ أرسلوه للحكيم.

خرجت فطوم بجلباب غامق وطرحة وملاءة سوداء وشبشب كما تخرج كل يوم، في ضفيرتها مفتاحان أحدهما لدولاب بالحائط والآخر لصندوق صغير ورثته عن أمهــا. حــين استيقظنا لم نجد التوتة وكان في مكانها حفرة كبيرة ومظلمة وبدا المكان غريبا ومكــشوفا. رغم وضوح الحفرة بدا أن الكثيرين لم يلحظوا غياب التوتة، فيما ظل السائقون ينادون:

ــ التوتة يا جدعان.. حد نازل.

أحلام

راودني أمل حين نظر محمد البط ـــ كاتب الاستقبال ـــ في ساعته واستأذن ثم دخل غرفته بينما بقيت هي علي حافة سريري تنصت وتتابع وكوب الشاي في يدها. بدأتُ الكلام بغلاسة الزوار والمرضي وحال المستشفي الذي لن ينصلح وبه سيد الحنط. انتقلتُ إلي الجمال والحلاوة، ضربت الأمثلة واستشهدت بمواقف من حياتي ومعارفي وجيراني. في منتصف الكوب الخمس انتظم شخير محمد البط في غرفته رغم انفلات ضحكها المفاجئ جزلا وحادا. في الرابعة صباحا أغلق الحنط بوابة الاستقبال وارتمي خلفها علي طاولة. فيما كانت تهتز بفعل الضحك حتى تدمع، لم تبد اهتماما بطرحتها التي انزلقت فبان شعرها الأسود ناعما ووجهها الجميل أكثر استدارة وحمرة قالت:

ـــ معايا أحلام في تانية ابتدائي.

وسندت صدرها وكحت فلمحتُ جانبا من ثديها الأبيض، وتجسمت البطن والسرَّة تحت الثوب فبدت مهرة عفية وجميلة. كانت صغيرة ومطلقة، طمع فيها الجميع وإن لم يصلوا إلي شيء، نشأت ووجيه المعاون والبط والحنط والدكتور وائل نفسه. راودني أمل فأعدت كلامي عن السمنة البسيطة التي تجعلها ملفوفة وتبرز في الوقت نفسه مناطق معينة في قوة وجمال. انتقلت من مكتبي إلي حافة السرير فلم تجفل، كانت تنصت مسترخية وكنت أتكلم كأنني أشرح وحين لمست المناطق المشار إليها اتسعت عيناها في اندهاش فأوشكت علي الارتباك. قلت إنني أحب استدارة الصدر وقوة الردفين وأميل بخاصة إلي التفاف الوسط والبطن حيث يظهر منخفض السرة من تحت الثياب هكذا وأشرت بإصبعي فاحمر وجهها وشبكت ذراعيها حول صدرها. ركزتْ نظراتها الخائفة نحو الباب وتابعت أذنها البط في شخيره المنتظم وبدت خجولة كبنات المدارس فيما لم تعد ضحكتها حادة كما كانت. مسكتُ يدها وأشرت إلي راحة الكف الطرية وامتلاء الرسغ بلا عظام بارزة أو عروق نافرة، جذبتها نحوي ولثمت شفتيها، عصرتهما في إلحاح، وامتدت يدي التي تعرف أماكن الإثارة إلي صدرها تخمش في حنان وتدغدغ في قسوة. بينما كانت مسبلة العينين منتشية وأنا أمرغ وجهي في صدرها دوت سارية الإسعاف. انتفضت واقفة فعدلت ثيابي وأنا أكح، وتململ البط تحت البطاطين وتوقف شخيره. رنت السارينة مموجة وملحة فنادي الحنط بصوته الغليظ وهو يستيقظ:

ـــ الترولّلي يا عواطف وصحي الدكتور.. فيه حالة.

فتح الباب فقفز شوقي المسعف صاخبا ومصفقا:

ــ فاكرين هتناموا.. والله لأقرفكم.

وضرب البط بالدفتر وسحب البطاطين من فوقه. تلفت فخطف نصف كوب الشاي وسدد نظرة إلي صدر عواطف الذي بدا ملموما. زغدته في صدره:

ــ اهمد بقه عاوزين ننام.

تدخل الحنط متظاهرا بالنوم والإرهاق:

ــ حول شوية الجامعة.. حرام عليك.

لعَّب شوقي حاجبيه متوعدا وكان يسحب الشفطة الأخيرة وهو يجذب النقالة. نقل الجثة علي الترولّلي فصرخت عواطف:

ــ يابن الكلب يا شوقي.. جايب لي ميت اعمل به ايه؟

خرجت من حجرتي فوضع شوقي كوب الشاي وانسحب، رفعتُ الملاءة: جثة هامدة لمجهول الاسم، لا توجد إصابات ظاهرة ولا يمكن تحديد سبب الوفاة. بينما كانت دموعها تسيل، كان شوقي ينطلق بالإسعاف. سجلت علي التذكرة:

ــ تبلغ الشرطة، وتنقل الجثة إلي المشرحة وتوضع تحت تصرف النيابة.

نظرت لهم وكررت:

ــ فورا.

بكت عواطف واتهمتهما بتدبير هذا الموقف مع شوقي، فيما تركزت عيون الحنط والبط نحوي منتظرة قراري. لم يخطر ببالي أنها مكلفة بنقل الحالات، وكي لا أبدو مجاملا لها أكدت في حزم:

ــ تنقل الجثة الآن بالترولّلي.

بصت في الأرض وبكت:

ــ الله يجازيك يا حنط انت وشوقي.

بدا الحنط سعيدا وتظاهر بتبليغ الإشارة للمركز ودخل البط غرفته، كانت تبكي بالفعل فعرضت الذهاب معها إن كانت خائفة.

بدا ممر الاستقبال باردا وطويلا يفضي إلي طرقات جانبية لمعامل وعيادات وأشعة. انطفأت الرغبة والشوق حتى حين اصطدمت دون قصد بمؤخرتها وهي تنحني غاضبة لتدفع الترولّلي. كانت تتندر منقبضة ومصدومة بنتانة شوقي الذي كان بإمكانه أن ينقر الباب فيخرج الحنط بالمفاتيح طالما معه جثة، يركب معه ويلف للبوابة الجانبية، يفتحها فتدخل السيارة حتى المشرحة، يتسلمها عبد المولي ويكمل إجراءاته في الصباح كالعادة. عبر

البوابة الزجاجية كان عليها أن تنحرف بالتروللي يسارا في طريق خلفي طويل ومظلم يفضي في نهايته للمشرحة ثم البوابة الجانبية. همسَت وهي تشهق:

ـ مشوار من ده كمان وأموت.

التصقت بي وقلبها ينتفض وسألتني إن كنت أرى علي يمين الطريق نسوة يعصبن رؤوسهن ويصرخن بلا صوت. كانت مذعورة فقلت ربما كانت جذوع أشجار وتساءلت: من أين تأتي النساء. في الظلام كانت تدفع التروللي وأساعدها حين تتعثر عجلاته. ولم يكن باستطاعتنا أن نحدد المشرحة. وقفت في مكان وصفقت بيديها ونادت في لوعة:

ـ يا عبد المولي.. يا عب مولي.

انفتح الباب للخارج فسقط مستطيل الضوء علي الأرض، أخذ التروللي في صمت وبصَّ في التذكرة، أخلي طاولة رخامية ثم نقل الجثة. دفع التروللي وأغلق الباب من الداخل بجفاء، فمسكت ذراعي بخوف:

ـ هو ده عبد المولي؟

ـ شكله.. بس مش معقول.. عبد المولي واد مدردح.

تساءلتُ: هل يحبك الحنط والبط مثل هذا الموقف فعلا بالاتفاق مع شوقي وعبد المولي لأكمل أنا الآخر بسذاجة وإصرار أن تنقل الجثة الآن؟ قالت:

ـ يبقي لسه ما عرفتهمش.

وسحبت التروللي خلفها فارغا، سرت بجوارها شاردا أدفع بقدمي زجاجات الجلوكوز وعلب العصير الفارغة، أكتشف الطريق لأول مرة في شقشقة النهار، أشجار جازورين متعرجة وجافة وأعشاب جافة وأشواك. بدا طريقا مهملا وكريها أكثر مما نراه من الشرفات.

ـ هي عملية الصمام دي كبيرة؟

فاجأتني بالسؤال، كان وجهها شاحبا ومرهقا وجلبابها مشبعا بالعرق:

ـ ليه؟

ـ بفكر أعملها بس خايفة أموت وأسيب أحلام لوحدها.

بجوار البوابة الزجاجية المؤدية إلي ممر الاستقبال، فاجأتني لوحة رخامية أكتشفها لأول مرة، متربة وقديمة لكنها واضحة:

ـ غرفة الموتى.

لم أكن أعرف أن عواطف مريضة بالقلب، فيما كان السهم يشير في اتجاهنا، كانت شاحبة وكنت أريد أن أري البنت أحلام.

حوار

(١)

الحياة رتيبة ومصر حلوة، الناس فيها بيض ويلبسون أحذية ويأكلون أشياء كثيرة، خطف الأكل من العيال أصبح مملا، وللكرنب المسروق طعم حار والعيال أولاد كلب، يختبئون عندما يكون معهم أكل. وأنا أستحم كثيرا في النهر. الطريق الزراعـــي ملـــيء بالـــسيارات الملونة والناس نظاف ويقرأون الجرائد .

قلت: سنذهب إلي مصر وستلبسين أحذية جديدة وفساتين خضراء وبيضاء.

قالت: سنذهب.

(٢)

علي المحطة ناس كثيرون، وهي تمشي خلف وتتلفت.

قالت: أبي سيذبحني لو عرف

قلت: أنت حلوة والحذاء جديد، ولن يذبحك أحد.

القطار جاء، دفعتها أمامي.

قالت: لأ

قلت: لماذا؟ قالت: لأ لأ.

زغدتها في ضلوعها وقلت لها:

ــ أنت أيضا بنت كلب ولا تريدين الذهاب إلي مصر.

كانت تبكي في صمت، ولا تمسح عينيها، وكنت أتسلق الجرار.

(٣)

تكومت بجوار المدخنة، كانت دافئة والجو بارد، وناس كثيرون علي سطح القطـــار، يلتفون بمعاطف شتوية ثقيلة. قريتنا بعيدة والبراسيم خضراء خضراء، والبنت وفاء حلـــوة وهادئة، ولا أدري لماذا ضربتها. أمي طيبة ولا تنام أبدا، كان النهار يشقشق وكنت أتـــسلل من تحت الغطاء.

قالت: علي فين؟

قلت: أشرب.

قالت: القلة جنبك.

قلت: أتوضأ وأصلي.

قالت: أنت ولد طيب، وستقرأ الفاتحة لأبيك.

وملست بيدها علي ظهري وخرجت.

(٤)

الواجهات الزجاجية مضاءة، والأحذية كثيرة، وهذا حذاء ينفع لك يا وفاء، سوف تلبسين معه الفستان الأخضر، وسوف أجلس بجانبك أنا الذي يكرهني أبوك، وسيعترض وأقول له أمام الناس:

ــ أسكت أيها النطع، أنا أحب ابنتك وهي أيضا تحبني.

كان الرجل بالداخل يحرك يده بعصبية ناظرا إليّ، ويتفوّه بكلام لم أسمعه، فهمت وبعدت عن المحل. كان العصر يؤذن، والمساجد واسعة وخالية، وبطني أيضا. والرجل بمحل الطعمية يقطع العجينة ويرميها في الزيت بسرعة. ناس يخشون المحل ويخرجون وهم يتحسسون كروشهم. رشني بعلبة الماء التي أمامه ولم يتكلم. لم أتكلم أنا أيضا ومشيت كانت المياه باردة وأثار العجينة علي جلبابي.

(٥)

لما خطفت الرغيف من الولد ذي الشعر النازل علي عينيه كان الرصيف مزدحما، ومسكني أبوه. التَمَّ الناس. كان بوز الحذاء يدخل في جنبي وفي أماكن أخري، وأنا متكور علي الرصيف، والولد ذو الشعر النازل علي عينيه، يضربني بقسوة، ويختبئ وراء أمه والنساء البيض يضربنني بالجرائد المطوية ويبصقن علي الأرض ويمشين. الولد كف عن البكاء ومسك يد أمه وكان يتلفت، والبواب القريب كان ينفض جلبابي ويعطيني رغيفا لم آخذه.

قال: إنت ساكن فين؟

قلت: أريد محطة القطار

قال: باب الحديد؟

قلت: باب الحديد

اللعبة

دخلت وراءه من الباب الموارب. شملني إحساس مفاجئ بالخشوع والانبهار. بدا أننا جئنا مبكرين. سألته أين أضع الشبشب، وكلمته عن خوفي وإحساسي بالبرد. قال وهو يركن الصندل جنب القبلة:

ــ لا تخف، سيأتي الناس ونشعر بالدفء.

المنور كان مفتوحا، وجير السقف يتساقط، وهدومنا مبلولة ما تزال.

علي الترعة، من فوق عائشة التي تغسل الهدوم، قفز في الماء بهدومه وقال في فرح:

ــ سنصلي الجمعة يا عائشة

تفت في عبها مرتين، وقالت إنها فرحانة بذلك، ثم ضحكت علي خيبتنا التامة في تنظيف هدومنا وغسلتها هي. حصيرة أمي مفروشة علي الماء، تغطس بنا وتقب بعيدا، وعائشة ذات الشعر المقصوص بيضاء وحلوة. قلنا:

ــ نحبك يا عائشة.

ضحكت وهي تنشر هدومنا، ثم عادت تقول إننا إخوتها الصغار. حسن يجلس بعيدا عني، ولمقرئ الجامع صوت قبيح. الجالسان بجواري ناما. أيقظتهما. زغداني فسكت. ناس كثيرون في الجامع ومازلت أشعر بالبرودة، غرفة عائشة دافئة. قالت لأمي أنها تخاف، وأنني أسليها. أيام الخميس يأتي زوجها، وأمي تقول لا تذهب الليلة.

لعبة الجامع حلوة، والعيال يقعدون في وسط الدار، يقرأ عليهم بصوته الجميل يقولون:

ــ الله.. الله يا شيخ حسن

فيضحك وأصعد أنا بسطة سلمنا الطيني، أسند كوعي علي بنية الحمام، اقرأ كتاب الدين والعيال يسمعون.

تهجم أمي مهرولة تصرخ:

ــ يا ولاد الهرمة طفشتوا الفراخ.

ثم تطلع لتقرصني من أذني. أنط قبلها. آخذ الحصيرة التي تطلب مني منذ الصباح أن أغسلها وأجري إلي الترعة.

قلت: لعبة الجامع حلوة

قال: حلوة فعلا. لكننا كبرنا ويجب أن نصلي في الجامع.

قلت: يلزمنا مداسات.

قال: شبشب أمك، وصندل أبي.

وقفنا. الرجل السمين زنقني في الصف الأول، رفع يديه لينوي، أنزلها فــأخرجني مــن الصف. حاولت أن أخش. حاشني بكوعه وتمدد في مكاني. تلفت كان الثاني مكــتملا. قلــت سأقف بين الصفين وأشب علي أصابعي، وأقول آمين بصوت عال ونويت. شــدني الرجــل الذي وقفت أمامه، وأفسح لي مكانا دفعني منه للخلف. عاودني إحساس بالبرد والارتبــاك. نويت. شدني الواقف خلفي، لست صغيرا بالتأكيد ويجب ألا يشدني أحد. نويت، شدتني أيــد كثيرة وكدت أسقط علي ظهري. وفي آخر صف بجوار الباب، تحتي بعض المداسات، لا يهم نويت. قالوا: (آمين) فقلتها بصوت عال. كان نفسي طويلا وأحسست بالانبــساط. الواقــف جنبي لم يقلها. التفت عن يمينه، قال:(السلام عليكم) وبص ناحيتي في قــرف، ثــم دفعنــي للخارج وأكمل صلاته. النساء المارات ضحكن، وشعور بالخجل سري فــي جــسدي كلــه. حاولت الدخول من الباب الآخر. رأيته مدفوعا من ظهره في منتصف الشارع يعدل جلبابــه. مشينا في صمت وبالجامع شبشب أمي الضيق وصندل أبيه الواسع، سألتنا عائشة، لم نرد. رمت اللقمة من فمها. وأخذتنا في حضنها، فبكينا في صوت واحد وهدومنا مبلولة ما تزال.

أغنية للنهر

(١)

هذا هو الطريق إلي الكتَّاب، مدق متعرج، مملوء بالعشب الطازج، يفصل الحيطان الواطئة عن حقول الذرة العالية. وتلك عيدان الذرة تحمل كيزانها الضخمة. أمشي مع العيال إلي الكتاب متأبطين ألواحنا وبقع حبر سوداء تلطخ جلابيبنا، ننفض بأقدامنا الحافية حبات الندى عن النجيل الأخضر في مشوارنا الصباحي إلي الكتَّاب. أحب عيدان الذرة وكيزانها البعيدة، والحاج طه يمر بين العيدان، ويقطع شواشيها ويرميها لجواميسه البلهاء، لم يترك عودا واحدا، أحزن كثيرا، لاشك أن العيدان كانت ستكبر ولن يحدها شئ حتى تصل إلي الشمس. أبصق في قرف وأرفع ذيل جلبابي وأبول علي الحيطان المتداعية والمدهوكة بالطين والتبن. كان العيال أيضا يبولون، وسيدنا الجالس من بعيد تحت شجرة التوت العتيقة يلتف حوله العيال ويصل صخبهم إلي هنا.

(٢)

إلي جذع شجرة التوت يسند سيدنا ظهره ويمد رجليه علي فروة خروف نظيفة، أمامه دوايات الحبر وأقلام البوص المبرية، سلمنا عليه وقبلنا يده، فأشار إليَّ أن أريه النجمة. تقدمت، أدرت ظهري فشد ياقة جلبابي لتحت وقرَّب عينه السليمة من ظهري ثم رفع الياقة ومشيت.(مؤكد أن هذا الأعور النجس رآها ممسوحة) قال لنا امسحوا الألواح، برمت ذيل جلبابي حول إصبعي وبصقت علي اللوح مرتين ومسحت الكتابة، فاجأتني عصاه الطويلة علي فخذي:

ــ بالمساحة يا إبن الكلب..

مفزوعا قمت أتألم. لم تكن أول مرة أمسح لوحي بذيل الجلباب، الآن فقط تأكدت أنه شاف النجمة ممسوحة. بحثت عن قطعة قماش ونقطة ماء ومسحت اللوح وناولته له علي أطراف أصابعي، فوضعه علي كومة الألواح أمامه. ولما جاء الدور ومسك لوحي كي يكتبه، نادي ولم يلتفت:

ــ سعد أحمد زفت..

ــ نعم يا سيدنا.

امتثلت أمامه، ورغم أنني لم أري الفلكة بجواره فقد سرت القشعريرة في بدني. كان يكتب اللوح وعينه المفقوءة قبيحة وللنهر حلاوة لا تقاوم. لابد أنني صغير ولن يضعني في

الفلكة. كنت أشعر برغبة شديدة في التبول، لو جريت من أمامه ربما يطلق العيال ورائي وتكون العاقبة أسوأ.

ــ نزلت المياه امبارح؟

ــ ....

هو يرسم علي ظهري نجمة ويراها كل يوم، فيعرف إن كانت ممسوحة أنني نزلت النهر.

ــ إنطق يا بجم.

وهوى بكفين ثقيلين وسريعين علي وجهي، ولما حاولت التملص للخلف كانت يده تمسك جلبابي وقطعة من فخذي. أشار إلي ولدين كبيرين أن يحضرا الفلكة، وقد ضاعت توسلاتي برحمة النبي والمصحف الشريف أن يعتقني سيدنا هذه المرة.

أدخل الولدان قدميَّ في الفلكة فيما بدت دموعي الحقيقية غزيرة وساخنة، والعيال البعيدون التفوا في دائرة. وضعت ذيل جلبابي تحت الفلكة الذي بدا محكما حتى لا يسقط الجلباب وتتعرى مؤخرتي، رفع الولدان الفلكة بفرح وتناول سيدنا عصاه وبدا الضرب حادا ومتلاحقا ومركزا علي القدمين.

ــ جاي.. أبوس رجلك.. أول نوبة وآخر نوبة يا سيدنا..

سقط ذيل الجلباب، سقط حتى رقبتي.. والولدان القويان تعبا والنار تشتعل في قدمي وسيدنا ابن الكلب بدأ يضرب عشوائيا في أي مكان، والحاج طه أوقف حماره ليتفرج:

ــ الحقني يا عم الحاج، ف عرضك

ــ عرضي إيه يا كافر دا انت دواك الحرق

تبولت رغما عني في وجه سيدنا وعلي حجره، فجفل ولمَّ ثوبه وانهال بضربات نهائية محكمة وموجعه علي مؤخرتي:

ــ قوم فز جاك طاعون.

أخرجت ساقي، زحفت بعيدا والعيال يضحكون. مركونا جنب الحائط أفرك قدمي، أتمني أن يموت سيدنا، ويموت الحاج طه. كان اللوح علي حجري وكنت أحاول أن أرسم نجمة سيدنا.

(٣)

الوقت عصرا وسيدنا لم يمت بعد، وقدماي ما زالتا تؤلماني والنجمة التي رسمها سيدنا اليوم علي ظهري توخزني، وللنهر الذي يناديني حلاوة والصهد قاتل. مياه النهر خضراء ونظيفة والورود برية علي الشاطئ. ألعن سيدنا وأخلع جلبابي، أطوح به بعيدا وأقفز في النهر فيما تمط الجواميس المربوطة رقابها نحوي وتتوقف عن الاجترار. أتسلق كالقرد

شجرة الكافور، أكسر فرعا طويلا، أجرده من أوراقه أغرسه في الجسر، أرجع للخلف ثم أندفع للأمام قافزا من فوق الفرع ونازلا برأسي في النهر. يطيب لي الغوص في الأعماق، أفتح عيني، ماء أخضر وطمي، ليس ثمة ثعابين أو جنيات، وليس ثمة ألم في قدمي، أغني للنهر، يتصاعد الغناء فقاعات، أفرح.. أفرح وألعن سيدنا.

الشمس تختفي خلف نواطير الحطب، الأنفار الراجعون من حقول الشيح يجرجرون أقدامهم، يقذفني أحدهم بطوبة، أغطس قبل أن تصلني، فيأخذ جلبابي ويشتم:

ـ اطلع يا بن الكلب ح تموت غريق.

فوق النجيلة الخضراء رقدت، ولما نشف الماء تناولت القلم البوص ومددت يدي إلي آخرها، في منتصف ظهري قررت أن أرسم نجمة. إذ أقذف حبات الزنزلخت في النهر واحدة واحدة في طريق عودتي، اكتشفت عند أول شارعنا أنني أمشي عريانا، وعيال الكتاب يسيرون خلفي يرددون:

ـ أبو نجمة أهه.. أهه.

كانت النسوة جالسات أمام أبوابهن، يتحدثن وينظرن إلي العيال خلفي والنجمة مرسومة ما تزال. اقترب العيال أكثر استدرت وصفعت أصغرهم فتراجعوا وأخذوا يشتمونني من بعيد. علي باب جارتنا كانت تجلس زوجة أبي، ترضع أخي الصغير الذي نام والذباب علي وجهه. وضعت أخي النائم علي الأرض وانطلقت خلفي. كان ثديها الضخم يترجرج من فتحة الثوب الجانبية وهي تهدد بإرسالي إلي غيطان الشيح.

(٤)

متمدد أنا تحت الحزام الصوفي بعري الكامل، أتظاهر بالنوم وجو القاعة خانق، وسقفها المجدول بالبوص مشرب بالهباب ويكاد الواقف علي الفرن أن يلمس برأسه عروق الخشب المقوسة. لمبة الجاز علي الرف ومعلق في الحائط لوحي وعليه نجمات صغيرة وكبيرة، وأبي يرقد جنب زوجته إلي الطرف الآخر من الحصيرة يتهامسان:

ـ هو نايم؟

ـ أيوه نايم عريان

أحسست برغبة في البكاء، وبالسقف يكتم أنفاسي، ولا أعرف لماذا تذكرت أمي، وأنا ما زلت صغيرا ولا أستطيع جني زهور الشيح، وليس هناك نهر، وعصا الخولي الغريب لا ترحم في عز الصهد. أفتح عيني بين لحظة وأخري، وقد غابت همسات أبي وزوجته وما زلت أحاول أن أنام.

(٥)

فوق شجيرات الشيح أنحني، والخولي من خلفي يترصدني وأنا أجمع الزهور الصفراء.

ــ ساعة ومش عارف تملا السبت؟

التفتُّ فلسعني:

ــ بتتلفت على إيه يا فالح؟

قفزتُ، فتناثر الشيح تحت قدمي، جريت خوفا فجري ورائي بعصاه الطويلة. رأيت سـيدنا كبيرا وقبيحا أمامي، وزوجة أبي تحاصرني، فقفزت في النهر وكانت يد الخولي تمـسكني. صحوت وكان الدم نازلا من جبيني وأنا مكوم أمام الفرن. كنا ليلا وكنت عريانا ولوحي معلقا في الحائط ما يزال، وزوجة أبي نائمة مفتوحة العينين، والسقف لم يسقط بعد.

مقام الغريب

لم نكن خجولين نحن الكبار والمتعلمين والعامة مما أصابنا من غبار وتعب ونحن منهمكين بهمة وصدق كي يكتمل البناء، فالجميع قد أكد الحدث وإن لم يشهده معظمهم، ذلك أن الغريب مات في صمت ولم يخبرنا أحد. ربما نادى المنادى باقتضاب وعدم اكتراث، وقد نكون سمعناه لكننا لم نهتم.. ولابد أن بعضنا قد رأي النعش يمر في العاشرة وخمس دقائق أثناء جلوسنا علي المقهى وأمام البيوت والدكاكين، لكننا اعتقدنا أن النعش الذي يحمله بائع ملح عجوز ورجلان وصبي ربما كان فارغا. ولابد أن بعض الوقت قد مر قبل أن ينتبه الجالسون أمام الأبواب والدكاكين ـــ ضحي نفس اليوم ـــ علي صوت جلبة وصياح ليروا مندهشين النعش طائرا بما لا يقل عن شبرين عن أعناق العجوز والرجلين وثلاثة أشبار عن رقبة الصبي. الأمر الذي جعل القرية كلها تتدفق إلي الشوارع في ذهول ليؤكد الجميع أن النعش وإن لم يره معظمهم كان طائرا ويكاد يجر خلفه العجوز والرجلين والصبي.

لم تكن حيرة حاملي النعش الأربعة عندما وجدوا المسجد مغلقا. فقد أرسلوا الصبي للشيخ سنباطي إمام المسجد الذي أنكر نفسه، وعندما توسل الصبي وربما بكي زجره الشيخ رافضا الخروج، فكان عليهم السير ـــ دون صلاة الجنازة ـــ في الشارع الكبير حتى منزل أبي غانم الجديد ثم الدخول في شارع الجبانة. كانت الحيرة عندما وجدوا الشارع مسدودا بمخلفات البناء، ورغم أن النعش لم يكن ثقيلا كما أكد الأربعة إلا أنهم لم يتمكنوا من صعود كومة الرمل العالية لانغراس أقدامهم. في هذه اللحظة ولابد أنها كانت الحادية عشرة وخمس دقائق، ربما حدثت المعجزة واستدار النعش طائرا بما أتاح للكثيرين رؤية الحدث رأي العين.

ولم يعرف الجالسون مع الشيخ السنباطي أن نصفه الأيمن قد أصابه الشلل إلا عندما هَمَّ ليستطلع أسباب الصخب بالخارج فانكفأ علي وجهه، ليكتشفوا أنه علي مدي الساعة الماضية لم يكن يحدثهم، وأنهم لم ينتبهوا إلي تلك الهزات المنتظمة في جانبه الأيمن والتي امتدت إلي وجهه ويده. وقالوا إن الشيخ قد زجر الصبي بالفعل ولكنه ربما كان يقصد إرجاء الجنازة إلي صلاة الظهر. ولقد ازدحم الناس حول النعش في منزل الغريب وخارجه والشوارع المحيطة حتى أن صخبهم قد غطي علي دوي انهيار منزل أبي غانم الجديد ذي الطوابق الأربعة، ولقد أكد بائع الملح أنه لا يعرف شكل الموت لكن الغريب كان رخوا وباردا وممتلئ، وقبل أن يهيل عليه التراب، رآه الحاضرون كأنه نائم، علي وجهه نفس الابتسامة، كأنه يوشك أن يستيقظ، حتى عندما جاءنا جميعا نفس الليلة في المنام، كان راضيا ومبتسما

ولما رأينا أطفالنا يبتسمون أثناء نومهم، أكدوا في الصباح أنهم لم يحلموا بل كانوا يلعبون بالفعل عند مقام سيدي الغريب. ولم نكن خجولين نحن الكبار والمتعلمين والعامة مما أصابنا من غبار وتعب ونحن منهمكين بهمة وصدق كي يكتمل المقام.

حصار

لا أعرف علي وجه الدقة متي بدأ ذلك الشعور بالغثيان والهبوط، ولكنني أحس به كلما مروا حول السور، إذ يتمشون ببرود، يشبون علي أطراف أصابعهم ويتطلعون إلي الداخل، وكنت أسمعهم يوجهون لي أحط أنواع الشتائم ــ أنا المشترك في ثلاثة حروب والمبتورة ساقي اليمني والحامل بطاقة المحاربين القدامى ــ ويكشفون جميع أسراري الشخصية وحين أواجههم بعكازي، يسرعون الخطي ويبتسمون ابتساماتهم الصفراء تلك التي أعرفها. لكنه ازداد حين لاحظت أن حديقة منزلي تضيق بشكل واضح مما اضطرني للوقوف محاذيا السور كي ألمح أماكن الانحراف ومراقبتهم ليال عديدة من خلف خزان المياه علي سطح منزلي قبل أن أحضر شريطا وأقيس مساحة الحديقة لأفاجأ بأنها بالفعل ناقصة.

اتهمتهم بزحزحة السور إلي الداخل في أماكن معينة، والنظر غير البريء لزوجتي، وإفساد الفاكهة علي أشجارها فقال وهو يربت علي كتفي:

ــ لماذا تنسي أنهم جيرانك ولهم حق المرور والتجول وأن أغلبهم مهذبون وأليفون إلي درجة بعيدة؟

بدأت في رشق الأسياخ الحديدية مدببة الأطراف في السور، وامتنعت عن الخروج منذ بدأوا أسلوبهم السخيف في لصق آذانهم بالحائط والتلصص من ثقب الباب وامتنعت عن الظهور في الشارع والمسجد وتخليت عن عادتي الصباحية في قراءة الفاتحة للعارف بالله سيدي(أحمد بكتوت) وصرت متوجسا أختبر طعامي بدقة وأحكم غلق الأبواب من الداخل وأنفض بحذر أغطيتي ثم أصحو منزعجا في منتصف الليل علي فحيح ثعبان أو طنين قنبلة توشك علي الانفجار، وصارحت زوجتي بأنني سأموت ملدوغا بثعبان فصارحها الطبيب بأن حالتي النفسية سيئة، وأن فردة جورب مقلوبة قد أظنها قنبلة، وقطعة حبل مرمية قد أعتقد أنها ثعبان، ثم همس في أذنها:

ــ يجب أن تفرغي حجرته من مثل هذه الأشياء.

وأشار إلي الشهادات والأوسمة المعلقة علي الحائط. مزقت روشتته واتهمته بالتواطؤ معهم، واتهمتهم أمام الشرطة بمحاولة قتلي منذ طردت السماسرة والوسطاء الذين أرسلوهم.

ــ ولماذا طردهم؟

ــ لأنني ببساطة شديدة لم أعرض منزلي للبيع.

واسترحت حين ذكرت كل شئ بالتفصيل فيما بدا أنني أمتلك ذاكرة قوية ومنظمة فربت الرجل علي كتفي:

ـــ نقدر دورك القديم، لكنهم الآن جيران وأصدقاء، تأكد من حمايتنا لك.

داخل حجرتي المغلقة من الداخل، صحوت علي شئ لزج يتسحب تحت أغطيتي، انتفضت مذعورا فرأيته، ثعبانا صحراويا يوجه رأسه الرفيع ناحيتي وينطلق كالسهم، ظللت أقفز علي ساقي الوحيدة في الهواء وأصرخ، لكنه كان ينقض بكل غل ويغرز أسنانه، وحين كسروا الباب من الخارج، كنت منهكا، بينما وقف هو في منتصف الحجرة رافعا رأسه الرفيع الحاد ومتوجها نحوهم ـــ زوجتي والشرطي والطبيب ـــ يمنعهم من الدخول.

كلب الزينة

حاول النباح أول الأمر فكان مضحكا، وبدا صوته ضعيفا ومضطربا. كنت أهشه فيفر مختبئا خلف المقاعد المتناثرة ويصرخ، يتأكد من ابتعادي فيعاود الظهور والنباح. انشغل به صاحبه، يداعبه ويمشط شعره ويعرِّفه بالمكان. كان طويل الشعر، جميلا ومترهلا حين يتقافز علي الأرض خلفه ببطء، فيما لم يعد صاحبه يسب الخدم أمامي أو يبصق علي الأرض ناظرا إليَّ، أو يجلس واضعا ساقا علي ساق أثناء مروري كما كان يتعمد أن يفعل.

لمحني علي الطريق فواصل نباحه واحتد حتى بعدتُ عنه. هششته كما كنت أفعل، فبرم ذيله ولم يجفل وخربش الأرض بساقيه. اقترب فبدت نظراته قاسية. اتضحت معالم القوة في صدره وسيقانه واختفي ترهُّل الجذع والبطن، وبدا أن شعره ليس طويلا وليس جميلا. اعتبرت نباحه المتواصل إهانة، خاصة أنه لم يعد يرتدع بالتهويش فاعتدت تجاهله، وبدأت ألزم الجانب الآخر للطريق. اعتاد النباح علي ألا يتخطى الأسفلت، واستبعد جيراني أن يكون لصاحبه دور في تحريضه.

حين فاجأني قاطعا الطريق ومتجها هذه المرة إلي ساقي، لم أدر هل كانت خطوة واحدة هي التي قفزتها الأمام تفاديا لأنيابه أم أنني هرولت، لكنني سمعت ربما في هذه اللحظة ضحكة قبيحة ومتهكمة، التفتُّ فرأيته جالسا هناك علي أحد المقاعد المتناثرة، يضع ساقا علي ساق ويحرك سبابته. داخلني الشك أنه يحرك الكلب بسبابته: يفردها فيهجم، ويلمها فيتراجع، مثلما كان يرسل لأبي ثعابينه السامة، تلدغه أو تخيفه ثم يسحبها بخيوط رفيعة لا تبين. هوَّن جيراني الأمر، فهو مجرد كلب للزينة، لا يستحق أن أهرول أمامه، ولقمة مسمومة أو رصاصة كفيلة بإنهاء الأمر، فيما جاءني أبي غاضبا علي مقعده المتحرك، يغرز سكينه الحاد في صدر دمية أو وسادة.

صرخت حين عقرني، أثناء مروري علي الجانب الآخر للطريق، دون أن أثيره أو ألتفت إليه، شتمت أصدقائي، وجيراني وجريت إلي دارنا وصعدت إلي حجرة أبي وأخرجت سكينه اللامع، حاولوا منعي لكنني أقسمت أن أقتله. منعني الكلب باستماتة، كان يتجنب طعنات السكين المتلاحقة ويهجم في شراسة، تقدمت، كان السكين حادا ومخفيا واكتشفت براعتي القديمة في المبارزة. رأيته جالسا هناك يحرك سبابته، أنزل ساقا وانتصب واقفا، كشَّ في الكلب فاستكان خلفه، وفرد ذراعيه مبتسما ومرحبا، وحائلا في نفس الوقت أن أصل إلي الكلب، هدأني ثم جذب مقعدا ونادى:

ــ قهوة يا ولد.

تعشَّم ألا يزيد الحادث من كراهيتي له، وعرض ساقي على طبيبه الخاص، فقال بـــسيطة. قال إنه كلب للزينة ولا يدري سببا لتغيره هكذا، اعتذر وأقسم أن أخرج من عنده راضيا. بدا ناعما أكثر مما توقعت، وكان كلبه مستكينا تحت قدميه في براءة كلاب الزينة، تساءل فـــي خبث وكان السكين مشرعا في يدي:

ــ سكين المرحوم؟

أومأت برأسي وأدخلته. قال بارتياح:

ــ أعرفه.

غمز للخادم بعينه، فناولني حبلا في طرفه خية، وأشار للكلب فارتمي تحت قدمي وأدخـــل رأسه، كان مسالما ودامعا وكنت أحكم الحبل حول رقبته، ناولني حجرا ربطته فـــي الطـــرف الآخر، سار بجانبي والطبيب والخادم خلفنا حتى حافة البئر، فبسط ذراعه على طوله وفـــرد كفه، قال وهو يحول الابتسام:

ــ تفضل!

دفعت الكلب والحجر في البئر، تابعت السقوط والصراخ ثم الفقاعات المتصاعدة. نـــاولني القهوة الباردة وحمَّلني اعتذاره الخاص للست الكبيرة، وأوصلني إلـــي أول الطريـــق. مـــات الكلب وكانت ساقي تؤلمني، ولم أشعر بالرضا إذ تكرر مجيء أبي ــ الذي علمنـــي أصـــول المبارزة ــ على مقعده المتحرك صامتا، يغرز سكينه الحاد في فخذيه ثم ينظر لي ويبكي.

أغلقت حجرتي من الداخل، أحكمت إغلاق النوافذ حتى الثقوب الصغيرة، أرتعد، لا آكل ولا أشرب ولا أنام، أبصق شيئا عالقا في حلقي لا يخرج. أصرخ صـــراخا متواصـــلا كالنبـــاح، أنتظر نهايتي في الغرفة المظلمة. أرتعد وأبصق لكني أري الأشياء واضـــحة وحقيقـــة. أراه مخادعا وناعما، كلبه ليس للزينة، يسير في جنازتي دامع العينين، وحين يصل إلـــي أمـــي ينحني على يديها مقدما العزاء.

البوابة

لم يعد الأمر يطاق. المشهد يتكرر كل ليلة في نفس الوقت، ربما علي نحو أكثر رعبا. عندما يستقر جسدي المتعب وأغفو ثم أغيب. يحدث، فأقفز من سريري صارخا، أنقض علي أكـرة الباب أفتحه فيتبدد ظلام المكان ذي النوافذ القديمة المغلقة، يهرولان نحوي فأهدأ ويتلاشى الانقباض والرعب. أرتمي في سريري منهكا أو مستسلما للبكاء. فشلت جميع المحاولات في منعه، فاتفقت معهما أن يتركا الباب مفتوحا أثناء نومي، وكتبت طلبا جديدا لنقلي وأرسلت برقية أخري:

"أموت بالفعل في ذلك المكان المعزول"

لا أدري كم من الزمن مر، ولكنني قدمت أحد عشر طلبا للنقل، وعشرين برقية، وخمس استقالات، ومات أبي، وفشلت في ثلاث محاولات للزواج، ثم مات أخي الأكبر والوحيد، وسمعت مئات الحكايات المملة والمعادة من مدبولي ومليجي عن أيام الدكتور سيد وزوجته التي لم تنجب، والدكتور مصطفي والدكتور عادل والدكتور وليام والممرضة روحية والكاتب سعد والجنايني أبو زيد محمود. ربما رأيت هؤلاء جميعا عندما كانت أمي تتردد بي صغيرا إلي هنا للعلاج، نفس المكان وإن اختلفت الصورة، مبني صغير من طابقين وبهو وحديقة وسور ببوابة حديد هي نفس البوابة تقريبا، حين كان الطريق إليها يمر عبر مدقات ملتوية وترع صغيرة وحقول، بينما كانت الأشياء مبهجة إلي حد كبير، غير أنهما يؤكدان دائما أن هؤلاء ربما ماتوا قبل أن أولد بوقت طويل. هما في حكم المقطوعين من شجرة، يعملان بالمصحة منذ إنشائها ولابد أنهما علي المعاش منذ زمن، لا صلة لهما بالمدينة، يتحدثان ويشربان الشاي ويلتزمان رغم صحتهما المتدهورة بتنظيف السكن وحجرة الكشف وإن لم يتردد علي المصحة مريض واحد.

رفضوا النقل أو الاستقالة، فتغيبت عن العمل شهرا ثم سنة كاملة بينما ظل هو علي عادته أول كل شهر، يطرق الباب، يسلمني المرتب، أشده للدخول ليستريح فيتراجع معتذرا:

ـ مرة تانية.. حضرتك عارف.. مليجي لواحده

مات أخي، فاكتشفت إخلاصهما، قام أحدهما بالغسل والتكفين وتولى الآخر نظافة الشارع وتشغيل القرآن واستقبال المشيعين. سارت الأمور دون تعقيد حتى أمام القبر حين جذب أحدهما الباب فحدث ارتطام مفاجئ، احتويا الموقف وإن لم يستطيعا إخفاء اضطرابهما، كنت أجهش بالبكاء، وكان الارتطام لهيكل عظمي يسقط، جمجمة في الغالب وفقرات رقبة وعظام ساعدين ورسغين وأصابع رأيتها متشبثة بالباب من الداخل، كان هيكل أبي دون شك فالقبر

لم يفتح منذ موته. لم أستطيع محو المشهد من رأسي وفي الليالي التالية لموت أخي كنت أخرج دون وعي إلي المقابر، ألصق أذني بالباب فترات طويلة، أسمعه كأنه يتقلب أو يستغيث، الصوت ضعيف لكنه واضح. أوشك أن أفتح القبر لكنهما يأتيان دائما في نفس اللحظة، يقنعاني بخطورة ما أفعله. أصبح من الضروري أن أذهب معهما إلي المصحة، فالسكن جاهز ونظيف. اشترطت أن يتركا الباب مفتوحا أثناء نومي وأن يهرعا إلي في نفس اللحظة.

زاد الشرود وضعفت الذاكرة، فأهملت الطعام والنظافة الشخصية وشملني الهدوء والسكينة، فانصرفت عن كتابة الاستقالات، وتعرفت عليهما أكثر فيما بدت حكاياتهما المعادة مسلية. استمر الوضع كما هو، نفس المشهد ونفس الأحداث وإن قلت هرولتهما أو امتنعت، فقد ضعف سمع أحدهما ولم يعد الآخر يري أبعد من متر. فقدنا التواصل فأعطياني مفتاح البوابة ربما أريد الخروج.

لا أدري كم الزمن مرّ، لكنني طعنت في السن بالتأكيد، وهذه المرة تكرر المشهد علي نحو مغاير، استيقظت فتناهي إلي أذني صخب لم أميزه، زئير حيوانات غير أليفة ربما أو نفير سيارات، خليط من صفعات وزغاريد أو بكاء، ترانيم كتلاوة أو صلاة بعيدة وحفيف رياح أو نقر مطر. لم أرتم في سريري كالعادة ونزلت السلم، مررت بحجرة الكشف، في البهو كان أحدهما نائما علي الأريكة والآخر جالسا كعادته في كرسي في وضع نعاس، ألقيت تحية الصباح بسرعة وخرجت إلي الحديقة، كانت الأرض جافة والبوص منتشرا فيما كانت أعمدة الإنارة مائلة وصدئة. تذكرت صديقي محمد ورد حين زارني وتساءل:

ــ كيف تعيش هنا وكل شئ حولك ميت.. حتى الشجر الأخضر؟

وضرب بقدمه جذع شجرة في غضب، فتطاير السوس وفرك ورقة خضراء في كفه ثم رفع عينيه نحو براعم الشجر وتساءل في استنكار:

ــ شجر بلا عصافير!

كانت البراعم جافة بالفعل، والرائحة قابضة ولم يكرر الزيارة. انقبض قلبي، كاد أن ينخلع، وشعرت لأول مرة برغبة حقيقة في الخروج من هنا. تذكرت أنهما لم يردا تحية الصباح وخطر في ذهني أنهما ميتان هكذا منذ زمن، ربما منذ سلماني المفتاح وإن لم أكن متأكدا.

زادت دقات قلبي وأصبح كل همي ألا أنظر للخلف، أخرجت المفتاح من جيبي، وضعته في القفل الحديدي للبوابة، كان صدئا فلم يدخل، حاولت فلم ينفتح، لا أدري كيف واتتني تلك القوة لأنهال علي البوابة أخبطها وأهزها وأصرخ فيتناثر الصدأ. رغم تناهي ذلك الصخب الخارجي إلي أذني، فإن ما فعلته بدا ضعيفا حتى أن أحدا لم يشعر بي، كنت متشبثا بالبوابة

ومتشنجا، وبدا أن دقات قلبي تبطئ ثم تتوقف والصخب يتباعد والأشياء تنسحب من أمامي ببطء غير أني لم أسقط. فقط كل ما أحس به، يدي المتشنجتين على حديد البوابة.